

بين حضارتين:

مفارقات بين الشرق والغرب

(تنهاده طيب عربي في الغرب)

وليفياً حتى صرت مسجلاً قداماً في مستشفيات بلفاست تكن له أقاصيص كثر طولاً، وسواء انتهت هذه بنهايات محزنة مؤلمة أو بنهايات سارة سعيدة، لكن جميعها تشكل ثروة هائلة من مخزون التجارب المفيد سلماً كان أو إيجاباً؛ لأجل أن يحذر المتأخرون من سلبياتها، وليحذو حذو إيجابياتها.

لكل منا قصة شهدا وتجربة عاشها في الغرب (إن لم تكن له أقاصيص كثر طولاً)، وسواء انتهت هذه بنهايات محزنة مؤلمة أو بنهايات سارة سعيدة، لكن جميعها تشكل ثروة هائلة من مخزون التجارب المفيد سلماً كان أو إيجاباً؛ لأجل أن يحذر المتأخرون من سلبياتها، وليحذو حذو إيجابياتها.

في حياة كل واحد منا أحداث شتى، تكتسب أهميتها من أهمية مستوى الشخص العلمي والوظيفي، ومن أهمية موقعه وعلاقاته في دائرة محيطه، ثم من جرأته في الحق وتداخلاته وتأثيراته في المجتمع.

ثم إن الأحداث تتفاوت في قوتها، فمنها العادية الروتينية، التي لا تعدى مستوى الرتابة، (لا فائدة من ذكرها)؛ ومنها أحداث توصيفية واقعية ثابتة مهمة (لا بد من ذكرها)؛ ومنها أحداث استثنائية في أمور الحياة، قد يُستفاد من ذكرها والاستشهاد بها، حتى وإن كانت شخصية، خصوصاً إذا كانت أبعادها وتأثيراتها تتجاوز الحدود الشخصية، وتفيد الصالح العام.

والأحداث تورد بدقاتها، ويراعى فيها أمران: المصادقية والتوازن، مصادقية الرواية، واتزان العرض برؤية شمولية واسعة، لكيلا لا تكون رؤية محدودة، ومن زاوية واحدة ضيقة تسد الفائدة المرجوة.

لم تكن مذكراتي في الغرب أياماً عادية، فقد كنتُ من القلائل الذين صعدوا سلم الوظائف البريطانية إلى ذروة قممها المهنية. ومن الذين قاموا ببحوث بشرية وبعوث مختبرية على الحيوانات في إحدى أهم مستشفياتها: مستشفى هامرسميث التعليمي في لندن، (وهي في أوج نتاجها العلمي الأكاديمي المميز عالمياً آنذاك)، وتدرجت

أمهات المجلات الشهيرة. ثم كنت المشرف على (معهد تاريخ الطب والعلوم عند العرب والمسلمين). وبذلك توفرت لي فرص نادرة للتواصل والاحتكاك المباشر مع أعلى المسؤولين البريطانيين في الحقول الطبية وعلى أعلى المستويات العلمية، وتوافرت لي فرص نادرة لبحوث ميدانية مثيرة وخصبة وأصيلية مع تقييم لرؤى الآخرين من الداخل البريطاني الأوروبي، بل ومن مصادرها ومنابعها الأولى.

ولعل اطلاع الطبيب على أسرار المجتمع أكثر من اطلاع المحامي القانوني، بل وأكثر حتى من اطلاع المعلم، لأن القانوني يطلع على حالات خاصة في أوقات متباعدة لا تعكس حقيقة المجتمع، والمعلم يتواصل مع شريحة معينة من طلاب المجتمع. وأنا كنت طبيباً يطلع على جميع شرائح المجتمع وطبقاته، ممثلاً بحالات مطردة ثابتة متكررة وحالات فريدة نادرة على السواء، وخلال عشرين متفاوتين: خلال دوراني بمراحل التدريب العالي في التخصصات المختلفة، قبل أن أكون استشارياً، ومن ثم عندما صرت استشارياً وعلى أعلى المستويات وفي أكثر التخصصات الجراحية إقبالاً وانتشاراً بين المرضى.

لعل من عادة الأجانب إنهم يكتبون مذكراتهم دوماً، فكلماً سافر أحدهم أو عمل في بلد أجنبي يرجع لبلده ويكتب مذكراته. ويقوم بذلك كل رئيس وزراء سابق، بل وأغلب السياسيين، ومقدمو البرامج التلفزيونية، ومقدمو البرامج الزراعية والحدائق بكتابة مذكراتهم. فتزدحم مكتبات الغرب حالياً بالمذكرات، بينما نحن بالشرق نندر نسبياً مواكبهم في هذا الحقل، بل جُل كتاباتنا هي ترجمة لكتبهم، والتي لا تمت لنا بصلة كبيرة!!!

(بين حضارتين: مفارقات بين الشرق والغرب) يفوق تفاصيل (قصة مدينتين) لشارلس ديكنز بين باريس ولندن آنذاك، و(تخليص الإبريز في تلخيص باريس) لرفاعة رافع الطهطاوي، وما كتبه غيرهم من الزوار العرب في توصيف الغرب. الفرق بيننا وبينهم هو فرق في توصيف المنبع عن المصب، وفرق السماء عن الأرض، أي الفرق بين مصدر المطر في السماء وبين موضع انهمازه على الأرض. فرق بين المؤثر المركزي الأصل وبين مُتلقى التأثير البعيد، فمتلقي التأثير الغربي من العرب والمسلمين في المشرق إنما هو توصيف لموضع التأثير في المصب، بينما العيش في المركز المؤثر ومعرفة مداخله ومخارجه ومعايشة أهله والقرب من صنّاع القرار في المنبع الأصل في رؤاهم للعالم ولغيرهم من شعوب العالم وكيفية تفعيلهم لهذا التأثير وطبخهم الطبخات السياسية في لندن (مطبخ السياسة العالمية) قبيل تفعيلها وتوزيعها على دول العالم. وتعدّ بريطانيا بلد محافظ بين دول أوروبا، ولها أنفاسها وتأثيراتها في دول العالم جميعاً شرقاً وغرباً، فمثال بريطانية مركزي في المفارقات بين

لعل من عادة الأجانب أنهم يكتبون مذكراتهم دوماً، فكلماً سافر أحدهم أو عمل في بلد أجنبي يرجع لبلده ويكتب مذكراته. ويقوم بذلك كل رئيس وزراء سابق، بل وأغلب السياسيين، ومقدمو البرامج التلفزيونية، ومقدمو البرامج الزراعية والحدائق بكتابة مذكراتهم. فتزدحم مكتبات الغرب حالياً بالمذكرات، بينما نحن بالشرق نندر نسبياً مواكبهم في هذا الحقل، بل جُل كتاباتنا هي ترجمة لكتبهم، التي لا تمت لنا بصلة كبيرة!!!

الشرق والغرب. وللكتاب نظرات عميقة في الاستطلاع في ظل دولة عظمى (كبريطانية العظمى) مقارنة ببلادنا العربية، وفي مدوناته تحليل لأصول المجتمع البريطاني خاصة والمجتمع الغربي عامة.

مع ابن بطوطة وماركو بولو وسَمَك السلمون

شاءت القدرة الإلهية أن أكون عربياً عراقياً على وجه التحديد، ليكون لي حمل وقسط من أحمال أهلي وبلادتي. ولكي لا يكتب وصفة الشفاء من لم يعان آلام المرض، حيث لا يعرف الخير إلا من ذاق الشر وعانى ظفره وقساوته، ولا يعرف عظمة الإسلام في التاريخ إلا من عاش الجاهلية وعاشها عن كذب. وبرغم الأحوال والنوازل التي حلت بالعراق وبأهله، وأحمالهم هي من أكثر أحمال الأمم؛ فلقد قال صلى الله عليه وآله وسلم تسلياً لهم: (إن من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذن يلونهم)؛ وفي جوابه لسؤال سعد بن أبي وقاص قائلاً: أيُّ الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه).

ولا زلت أبسّم بل وأفخر بعروبتني، كما أفخر بنسبي الحسيني الهاشمي الشريف. ولا زلت أتناول دوماً بالمستقبل والفرج القريب وبالخير الوفير إن شاء الله، لأنها سنة الله في خلقه عبر التاريخ (إن مع العسر يسراً). لقد خبرت هذا العالم أسفاراً وترحالاً برأ وبحراً وجوّاً، ولقد أحببت البحر كحبي لليابسة.

ولعل من الطبيعة البشرية وأنا أستوطن بريطانيا (جزر في شمال المحيط الأطلسي) هو عشقي للماء والأنهار وعشقي للبحيرات والبحار، (ليتناغم مع سكني في بريطانيا الأطلسية): أو ليس الإنسان قد خلق من ماء (وجعلنا من الماء كل شئ حي)، فالمرء يتحرك بقلبه النابض بالدم (وجله من ماء)، ويصوّل ويحول بدماعه المليء بالسائل النخاعي، ويجول بعينيه المليئين بالسائل

المائي، ويتغذى بأمعائه من الغذاء المهضوم بالعصارات السيّالة.

هي الطبيعة البشرية إذن تحكمني بتأمل البحار: في مدها وجزرها، وفي ملوحتها وأجاجها، بل وفي أسماكها وحياتها:

ولله الحكمة البالغة في تأثير القمر على مدّ البحار وجزرها، ففيهما حياة للبشر يستخرجون منها النفاس والأسماك والقواقع ومفصليات البحر وثماره يجمعونها من الساحل والقاع بعد الجزر، ويفادرونها قبيل المد الراجع؛ ولله الحكمة البالغة في تأثير القمر علينا وعلى السوائل في أجسادنا، ومن ثم على مزاجنا النفسي والسلوكي.

ولله الحكمة البالغة في تمليح البحار، تكمن في حفظ الأسماك وأحياءه، فتؤكل وهي ميتة، لأنها محفوظة بماء مركز بالملح الأجاج (كمخلل الطرشى).

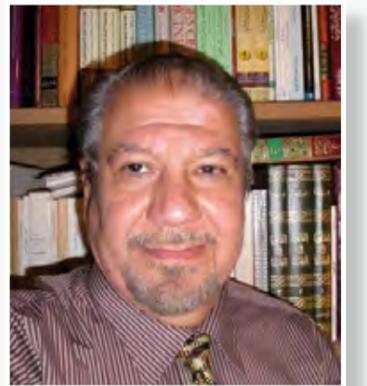
ثم إن ملوحة البحار هذه تمنع التعفن، فلولا الملح الأجاج لكانت تيارات مياه البحار وتيارات الرياح فوق ماء تنقل عفونة الجيف والسّمك الميت في البحار آلاف الأميال وعبر السواحل والمدن للبشر كلهم وتقتلهم باستشراء جائحة الوباء القاتل.

ولعل في انتحار الحيتان، وهي أكبر الكائنات على الإطلاق قوتاً للعالمين؛ تأتيك بنفسها لتموت على السواحل لتوفر عليك مؤنة البحث عنها واصطيادها من باطن البحار، فبدل أن تذهب إلى منتصف المحيطات وأعماق البحار، وقد لا تستطيع حتى الإبحار إلى مواضعها لاصطيادها، فكيف بالفوص لأعماقها.

لكن للبحر عندي سحر آخر:

ففيه ظاهرة لطالما كانت تشدني دوماً وهي عودة سمك السلمون (Homing of Salmon fish) من البحار إلى الأنهار، التي ولدن فيها ورجوعها لموطن ولادتها. يولد سمك السلمون في الأنهار الحلوة بالآلاف، ثم تترعع في طريق المياه المنسابة الجارية مُجرّفة مع التيار من أعالي الأنهار ومنحدرة نحو البحر، حيث يكتمل تكوينها وعندما تبلغ إناث سمك السلمون سن البلوغ ويلقحها ذكور السلمون في البحر، تبدأ رحلتها العجيبة الغربية المضنية من البحر إلى النهر الذي ولدت فيه، فترجع مسرعة عكس التيار وتتط من الواطئ للعالي من مجرى المياه الصخري، فيترصدها الدببة والثعالب على حواف الأنهار. وعندما تعود التاجيات البانغات من السلمون لموطن ولادتها تشرع بوضع بيوضها بالآلاف ثم تموت بعدها في النهر في نفس البقعة التي ولدت فيها.

وهكذا فعل ابن بطوطة (ولد في طنجة المغرب 1304 - 1369م حيث يرقد في طنجة) ترك بلاده عام 1325م وهو ابن الواحد والعشرين من العمر حاجاً لبيت الله الحرام برأ، وقضى في رحلاته قرابة 29 سنة من عمره، ومن ثم قتل راجعاً أخيراً لطنجة عام 1354م. وبناءً على



البروفيسور: مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشرف على:

معهد تاريخ الطب والعلوم

عند العرب والمسلمين

(www.ihams.org)

لندن

طلب حاكم المغرب المريني آنذاك (أبي عنان فارس) كتب رحلته الشهيرة (رحلة ابن بطوطة المسماة: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار") . وهكذا فعل ماركو بولو (1254م - 1324م) الذي ترك بلاده قرابة 19 سنة (ترك فنيسيا راحلاً للصين عام 1276م، ورجع لفنيسيا عام 1295م ليموت فيها).

كم يتشابه هذان الرحلتان المتعاصران: لقد دارا العالم المعروف آنذاك، ثم رجعا إلى موضع ولادتهما، ليموتا فيها.

وأنا لا أكاد أختلف عنهما، فأنا أنتمي لعالمين مختلفين: عربي من الشرق يستوطن الغرب في بريطانية الأوروبية. أنتمي لثقافتين وحضارتين مختلفتين عن بعضهما عن بعض: حضارة الإسلام العربية وحضارة الغرب الأوروبية.

وبرغم مكتبي العامرة الكبيرة وقراءتي المستفيضة، لم أجد كتاباً توثيقياً واحداً مفصلاً يرجع إليه في مفارقات الشرق عن الغرب، يكتبه عربي أو مسلم استوطن الغرب وعاش الغربية رداً من العمر. ولكن هناك أشتات كثيرة من معلومات شفوية ممن عايش وسب الغرب، وممن مدحه وانتصر له، وممن يكيل اللوم لظروف الشرق التي دفعته للهجرة إلى بلاد الغرب. وهناك أيضاً كتيبات وفصول كتبها زائرون سواح، لم يقضوا في بلاد الغرب سوى أياماً معدودات على أقل تقدير، وقد تتجاوز بضع شهور، قد تصل أحياناً لبضع سنين من الإقامة والدراسة على أبعاد تقدير.

إن الكثير ممن استوطن الغرب وعاش فيه، كان قد شق أحد طريقتين:

■ إما أنهم نزعوا هويتهم بالكامل وتغربوا واغتربوا تماماً، خصوصاً بعد أن تزوجوا بأجنبيات وصاروا ينظرون نظرة دونية لأوطانهم في المشرق، (وإن كانوا لا يخلون أحياناً من نظرات العطف والحنان لأوطانهم).

أقول: في الوقت الذي أثر هؤلاء المسلمون إيجابياً في الغرب وتطوره خدمياً وعلمياً، فقد تأثر هؤلاء ولشد يد الأسف بالمجتمع الغربي سلبياً.

■ وإما أنهم عاشوا في الغرب محفظين بالكثير من مزايا هويتهم وشخصيتهم الشرقية، لكنهم نسوا في معمرة الحياة وحركتها الرتيبة هناك من تسجيل مشاهداتهم المفيدة سلباً أو إيجاباً، وحتى لو كانت لهم مشاهدات، فقد لا يكونوا قد امتلكوا ملكة الكتابة لتسغمهم بتسجيلها في كتاب.

أقول: تواصلت مع هؤلاء وكنت أسجل مشاهداتهم الشخصية وملحوظاتهم العامة، لأحتويها في المفارقات بين حضارتين.

إن الثقافة هي منظومة متشابكة من العلم والروح والعادات والسلوك. وهي التي تقضي للحضارة التي هي نتاج الثقافة المادي الملموس. فكل حضارة لها ثقافة ترتكز على مبادئها، لكن ليست كل ثقافة تتطور إلى حضارة.

وإن الثقافة هي منظومة متشابكة من العلم والروح والعادات والسلوك. وهي التي تقضي للحضارة التي هي نتاج الثقافة المادي الملموس. فكل حضارة لها ثقافة ترتكز على مبادئها، لكن ليست كل ثقافة تتطور إلى حضارة.

والثقافة العربية الإسلامية هي التي احتضنت علوم الإغريق والفرس والروم، وصهرتها جميعاً في بوتقة الإسلام ومبادئه السمحاء، لتتصنع أعظم حضارة في العالم والتاريخ، حضارة ترتكز على العلم والإيمان؛ وما تأخرها اليوم إلا بسبب عدم تفعيل أو سوء تطبيق الثقافة العربية الإسلامية، وعدم نهضة أبنائها للجهاد والإجتهد في سبيل إعلائها.

والثقافة العربية الإسلامية هي التي احتضنت علوم الإغريق والفرس والروم وصهرتها جميعاً في بوتقة الإسلام ومبادئه السمحاء لتتصنع أعظم حضارة في العالم والتاريخ، حضارة ترتكز على العلم والإيمان؛ وما تأخرها اليوم إلا بسبب عدم تفعيل أو سوء تطبيق الثقافة العربية الإسلامية، وعدم نهضة أبنائها للجهاد والاجتهاد في سبيل إعلائها.

لقد كانت بغداد العباسيين مركز الحضارة والعلوم والتسامح الديني والتحرر الفكري والتعايش الإنساني والأخوة الحقيقية بلا عنصرية، بينما صار الغرب اليوم ممثلاً بالعاصمة البريطانية: لندن هو مركز العلوم وموضع التسامح الديني والحرية الفكرية والتعايش الإنساني، ولكن بلا أخوة حقيقية وبالعلاقة ممزوجة بعنصرية مبطنة.

تركز المدونات على المفارقات بين الشرق والغرب بشهادة طبيب عربي عاش في الغرب وسجل الأحداث والأمور ذوات العبر والفائدة والاعتبار، مع إهمال وحذف للكثير من التفاصيل الشخصية المملة وغير المفيدة، التي ليس للقارئ فيها ناقة ولا جمل.

وهذا يجعل كتاب (بين حضارتين أو بين ثقافتين) مرجعاً مركزياً معتمداً وكتاباً فريداً وحيداً في المفارقات بين الشرق والغرب، بل وكتاباً ممتعاً ومكتنزاً بأسرار دقيقة وعميقة ومدهشة يُصعُح عنها لأول مرة عن تفاصيل الأحوال الطبية والعلمية والاجتماعية والسياسية والقانونية مع الخلفية التاريخية لثقافة الغرب مقارنة بثقافة الشرق العربي الإسلامي.

فالكتاب ذو مقاصد شريفة سامية تعرض: المفارقات الإيجابية المفيدة (للتعلم منها)، والمفارقات السلبية الضارة (لتجنبها والاحتراز منها).

من هنا، يكون الإلمام بهذه المفارقات جميعها ومعرفة

مفيدها من ضارها، موضوعاً شيقاً شديد الأهمية والخطر، بعيد الرؤية والنظر، وعميق التأثير الأثر، في تفسير أحداثنا التاريخية قديماً، وفي تفعيلها وتطبيقها حاضراً، وفي تعلقاتنا وأماننا مستقبلاً.

القرية العالمية

والمفارقات بين الشرق والغرب مهما اختلفت وتباعدت وتعمقت وتعددت، لكن يظل الشرق والغرب وجهين لعملة عالمية واحدة، وانعكاساً لحضارتين مختلفتين، لكن في قرية عالمية واحدة، يتأثر كل منهما بالآخر ويؤثر به كذلك.

لكننا اليوم في وقت تكاد تذوب فيه الفروق بين الشرق والغرب، في وقت صار أبناء الشرق يقلدون أبناء الغرب في طباعهم وشماثلهم، وفي وقت صار أبناء الشرق يتنافسون للمجيء الى بلاد الغرب زيارةً وهجرةً، ويقومون بترجمة كل ما عندهم من نتاج إلى لغتنا، سواء في مجال العلوم البحتة والفلسفة (وهذا قليل نسبياً) أو في مجال الآداب في حقول القصص والروايات المسرحية والأفلام السينمائية (وهذا كثير). ويرجع ذلك كله الى عقدة النقص عندنا (inferiority complex) بسبب تأخرنا تقنياً وعدم مواكبة الغرب في علومه. هذا في حين لا يابه الغرب اليوم كثيراً بترجمة ما عند الشرق من نتاج أدبي أو علمي إلى لغتهم، اللهم إلا ما ندر، وذلك بسبب عقدة الاستعلاء والاستكبار عندهم (superiority complex).

وصار للغرب اليوم قنوات ووسائل إعلام كثيرة تتواصل بلغة الشرق؛ لا تأخذ منه بل لتُديم وتُحكّم من تأثيرها الفكري على الشرق في زمن صار العالم كله قرية صغيرة عالمية، تُثقل فيه الأخبار مباشرة، وتتواصل فيه الشركات إلكترونيًا، وتقتصر فيه المسافات بين الدول سفرًا.

إذن ما الفائدة من كتابة كتاب المفارقات بين حضارتين والعالم كله صار قرية واحدة؟

والجواب: لأن الشعوب تختلف بعاداتها وطبائعها وقوانينها ونظم حكمها عبر التاريخ، فالشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقي الإثنان أبدًا.

وبينهما فواصل جغرافية (وحروب صليبية في حملات حكومية هائلة دامت 200 سنة). وهذا ما يؤكد شاعر الإمبراطورية البريطانية روديارد كبلنج Rudyard Kipling في قصيدته:

Oh, East is East and West is West
And never the twain shall meet

وقد يكون للشرق تفاضل رباني على الغرب لأن نبيه الخاتم محمد (صلى الله عليه وسلم) أرسل رسولاً للعالمين والناس كافة، ولهذا لم يرسل الله تعالى نبياً واحداً إلى أوروبا؟

والله أعلم بعباده، لأنه يعلم أن لو أرسل لهم نبياً في

أوروبا، أنهم لن يتقبلوا دعوة نبيه بحرارة وعاطفة ولن ينصروه، فمن مواصفات الغربيين البرودة وقلة الغيرة والفلسفة البيزنطية السفسطائية المعقدة والانتقام الزائد، ويغلب على الإنجليز النفاق عدم الإخلاص والخيانة (فالكتير من الإنجليز مخبرون سريون حتى على جيرانهم). بينما العرب فبرغم مشاكساتهم وعداوتهم البينية، إلا أنهم أهل حرارة عاطفية وأشعار وأهل غيرة وشجاعة وكرم. ويغلب على الشرقيين خصوصاً العرب بساطة ووضوح التفكير والثقة الزائدة بالناس والجيرة وحب الجيران.

ثم إن الماضي يختلف جوهرياً بين شعوب الشرق والغرب، وهو الذي يرسم شكل الحاضر والمستقبل.

يرتبط الماضي بالحاضر والمستقبل بوشائج تكوينية لا تفصم، فيمدّ الماضي جذور الحاضر، وهذا بدوره يُنبئ شجرة المستقبل وفروعها. نحن تربينا في الشرق وتعلمنا ونشأنا بالطرق التقليدية القديمة Old is Gold. لكن الجيل الجديد في الغرب (والآن في الشرق) من أبنائنا سطحيون ومعلوماتهم انتهازية تكاد تقتصر على الشبكة العنكبوتية، لذا فإن جيل الإنترنت هذا يفتقر للخبرة:

خبرة الجيل القديم، وأبناء الجيل الجديد متلونون ومتغيرون في خلقهم كما هم متغيرون في خلقهم وعمليات التجميل المصطنعة وعمليات تحويل الجنس، يؤمنون بكل تغيير بلا ثبات واستقرار New is Change . فتحن كنا مثل الديناصورات العملاقة قياساً بالجيل الجديد الذي يشبه الكائنات الطفيلية opportunistic organisms لكن للأسف الديناصورات منقرضة، وجيلنا سينقرض إلا لمن حافظ على التربية التقليدية لأبنائه في بعض بلاد الشرق مع المرونة لاحتواء تقنية الشبكة العنكبوتية.

والشرق اليوم يمثل الذهب القديم، بينما الغرب اليوم يمثل الجديد المتطور.

وهما يشكلان مفارقات لطيفة تذكرني بنكتتين:

الأولى:

حكي أن الحجاج بن يوسف الثقفي (عفا الله عنه) اشترى غلامين أحدهما أسود، والثاني أبيض (يذكر أنني بالشرق والغرب تبعاً)، فقال لهما في بعض الأيام: كل واحد يمدح نفسه، ويذم رفيقه.

فقال الأسود:

ألم تر أن المسك لا شيء مثله

وأن بياض اللفت حمل بدرهم

وأن سواد العين لا شك نورها

وأن بياض العين لا شيء فاعلم

فقال الأبيض:

ألم تر أن البدر لا شيء مثله

وأن سواد الفحم حمل بدرهم

وأن عباد الله بيض وجوههم

ولا شك أن السود أهل جهنم

فالخير إذن موجود في الإثنين (في الشرق والغرب).
الثانية:

حال الشرق (بسحره وجماله وأسراره) أمام الغرب (المعمم بالحياة والحيوية الجديدة) يذكرنا بسجال زوجة الرجل القديمة مع زوجته الشابة الجديدة، حيث كانت الجديدة تمرّ بدار ضررتها القديمة، فمرة تقول لها:

وما تستوي الرجلان: رجلٌ صحيحة

ورجلٌ رمى بها الزمان فثُلّت

ومرة تقول لها:

وما يستوي الثوبان: ثوب به البلى

وثوب بأيدي البائعين جديد

فخرجت إليها الضرة القديمة قائلة لها:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما القلب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنيه أبدأ لأول منزل

روى الخطيب البغدادي بإسناده عن موسى بن يسار أنه قال:

(لا تأخذوا العلم إلا من أفواه العلماء) وقال أيضاً:

(الذي يأخذ العلم من الكتب، يقال له: الصحفي.

والذي يأخذ القرآن من المصحف يقال له مصحفي).

والتصحيف والتحريف هما آفة الكتب. لكن هذه العبارة اللطيفة تطبق على الزمن الماضي أكثر من زماننا

الحالي، فقد قيلت في وقت كانت الكتب تُخط باليد، فتختلف الخطوط، ويتداخل الكلام، ويقع التصحيف،

ويكتب أحياناً بلا نقط - فضلاً عن الشكل-... إلى آخر ما يعترض طالب العلم في الكتب حينئذ.

لقد تربينا في الشرق، وتعلمنا تعلم التلميذ مع أستاذه

والطالب مع شيخه، ولكم كنا نستهن من يعتمد الكتاب

وحده دون أستاذ أو شيخ، مستشهدين بالمقولة: (من كان

إمامه كتابه. كثر خطؤه وقَلَّ صوابه) أو (من كان شيخه

كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه). فالكتاب برغم أهميته

وتأثيره إلا أنه أحياناً قد يشكل معلومات أكاديمية نظرية

باردة، لا تقارن بمخزون المشاهدات الميدانية والمعاشات

القرية والدراسات العملية (كهذا الكتاب). وأعظم

الكتب هي التي تعتمد التفعيل والترجمة العملية الحقيقية

للمعلومات الأكاديمية النظرية البحتة.

منافع الترحال وفوائد السفر

إن الكلمة الإنجليزية (Travel) هي من أصل عربي (ترحال) ، بل إن العبارة الإنجليزية (Travel Agency) هي الأخرى من أصول عربية، وتعني بالنص: (أجير الترحال): حيث إن الكلمة (Agency) مشتقة من أصل لاتيني (agere) أي أجبر من الفعل أجر يُؤجر. وكان العرب قبل الإسلام قبائل رُحّل، يشتغلون بالتجارة

والغزو، فجاء الإسلام فهذب طباعهم.

وهذا يعني أن المسلمين لهم قصب السبق في الترحال للحجّ والعمرة، والهجرة في سبيل الله من أجل العقيدة وفتح البلدان، ومن أجل التجارة والاستكشافات الجغرافية، وقد جابوا البلاد سياحة وزيارة وأسفاراً، وقطعوا الأرض طولاً وعرضاً، ودونوا مشاهداتهم ورحلاتهم في كتب موثقة، مثل رسالة أحمد بن فضلان البغدادي وسفارته لشعوب الفايكنغ في قلب أوروبا، ورحلات الإدريسي وابن بطوطة وابن جبير وغيرها الكثير.

والأرض كلها (بمشرقها ومغربها) في مفهوم الإسلام

هي أرض الله، يقول تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَمَجَّهٌ اللَّهُ أَسْمَاءً إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ البقرة:115

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ المزمّل:9

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ الرحمن:17

والله تعالى يُسم نفسه قائلًا:

﴿فَلَا أَمِمْ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَنَدْرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ المعرج:40

وكانت فتوح الإسلام استعماراً وعمارةً للبلاد المفتوحة، ثم كان التوسع الغربي في العالم مستجلباً معه تجارة الرقيق الأسود للمستعمرات الزراعية تحت إدارته، ثم فتح الغرب باب الهجرات له لسدّ الشاغر بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكانت البعثات العلمية والإجازات الدراسية الشرقية تتابع إلى بلاد الغرب للنهل من علومهم وتقديمهم التقني، ومن ثم صارت الهجرات اليوم بسبب الظروف السياسية، التي تمرّ بالعالمين العربي والإسلامي (أشبه ما تكون بتجارة الرقيق، لكن بإرادة وجهد ومال المهاجرين أنفسهم!).

كنا في لندن عاصمة بريطانية نقول: «إذا رميت نواة النمر بالهواء، تسقط على رأس هندي» لكثرة الوافدين من الهند للأرض البريطانية. لكن اليوم نقول: «إذا رميت نواة النمر بالهواء، تسقط على 5 رؤوس عربية أو عراقية» لأن الوافدين من العرب والعراق والمغرب صار يبرز ويفوق عدد الهنود في لندن.

فحين تتجول في شارع إيدجووير روود Edgware road في لندن تبصر المطاعم بأسماء عربية (كبة الموصل) (سمك مسكوف عراقي) (كباب) (قوزي) (كبسة). بل صارت كبة الموصل والمأكولات العربية تباع في سوق ساوث- هول south hall في لندن. وفي كل سبت تجد الزوار يفدون على سوق بورتوبيلوروود Portobello Road Market ، وفيه عشرات الأطباق المغربية اللذيذة.

ذات مرة، لفت انتباهي في لندن عنوانان:

(Damas Gate)، و(Moussaka Restaurant)، و(Meze Restaurant)، فاستغربت أشد الاستغراب من مُسمياتهما، فاتضح لي بعد البحث والتقصي أنها جميعاً مُسميات عربية تعني (تباعاً):

(بوابة دمشق)، (مطعم مسقمة - أي شرائح مطبق الباذنجان)، (مطعم مزه - أي مقبلات في أواني صغيرة مَنوعة، تؤكل أحياناً مع شرب الخمر) !!!
نعم، الأرض، كل الأرض هي أرض الله. وما هاجر العرب والمسلمون من المشرق للمغرب إلا سياحة في أرض الله: إما للعلم وللدراسة ونيل الشهادة، وإما للعمل، وإما للتجارة، وإما هجرة بسبب الظلم والطغيان في أوطانهم، ولعلها إرادة الله فوق كل إرادة تحكم في أرض الله بالتعريف ونشر الإسلام في قلب الغرب الصليبي، ولله الحكمة البالغة في كل شيء.

قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ مَلَائِكَةً ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٩﴾ قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴿٢١﴾﴾
النساء: 97 - 100. مُرَاغِمًا أَي مَكَانَ لَجُوءٍ.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله) في هذه الآية:
إنها نزلت في أناس تخلفوا في مكة ولم يهاجروا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما كانت غزوة بدر، أجبرهم الكفار على الخروج معهم، وحضروا القتال، فنزلت الآية الكريمة فيهم لما قتل من قتل منهم، وإن قوله جل وعلا: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم). معنى ظالمي أنفسهم بالإقامة بين أظهر المشركين، وهم قادرون على الهجرة، (قالوا فيم كنتم): يعني قالت لهم الملائكة: فيم كنتم؟ (قالوا: كنا مستضعفين في الأرض)، يعني في أرض مكة، (قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة)، يعني قالت لهم الملائكة: (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك ماوأهم جهنم وساءت مصيرًا. إلا المستضعفين).. الآية. فهو متوعدون بالنار، لأنهم أقاموا بين أظهر الكفار من دون عذر، وكان الواجب عليهم أن يهاجروا إلى بلاد الإسلام، إلى المدينة المنورة..... وبكل حال فهم بين أمرين: من قاتل منهم وهو غير مكره فهو كافر، حكمه حكم الكفرة الذين قتلوا، وليس له عذر في أصل الإكراه، لأنه لما أكره باشر وقاتل ومساعدة الكفار، فصار معهم وصار مثلهم، ودخل في قوله تعالى: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم)، وقد أجمع العلماء رحمهم الله على أن من ظاهر الكفار والمشركين وساعدهم بالسلاح أو بالمال فإنه يكون كافرًا مرتدًا عن الإسلام، أما من أكره ولم يقاتل ولم يرض بقتال أهل الإسلام، ولم يوافق على ذلك، ولكن أجبر وأكره بالقوة والرباط والإكراه، حتى وصل إلى ساحة القتال ولم يقاتل، فهذا يكون عاصيًا بأصل إقامته، ومتوعد على ذلك بالنار لأنه، أقام معهم من دون عذر، ولهذا ذكر ابن كثير رحمه الله وجماعة آخرون من أهل

العلم: أن الإقامة بين أظهر الكفار وهو عاجز عن إظهار دينه محرمة بالإجماع، ليس للمسلم أن يقيم بين الكفار وهو يقدر على الهجرة، وهو لا يستطيع إظهار دينه، بل ومغلوب على أمره، بل يجب عليه أن يهاجر بإجماع المسلمين لهذه الآية الكريمة، لأن الله وصفهم بأنهم ظلموا أنفسهم بهذه الإقامة وتوعدهم بالنار، فدل ذلك على أنهم قد عصوا الله بهذه الإقامة، والهجرة لم تنقطع ما دام هناك دينان فالهجرة باقية، وإنما الهجرة التي انقطعت من مكة لما فتحت: لأنها صارت بعد الإسلام بعد ما فتحها الله على يد النبي صلى الله عليه وسلم صارت بلد الإسلام، فقال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح). يعني من مكة بعد الفتح، أما الهجرة في أصلها هي باقية، ولهذا جاء في الحديث الآخر: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة).

فكل بلد صار فيها الكفار، ولم يستطع المسلم فيها إظهار دينه، ولا إقامة دينه، ولم يستطع الخروج يلزمه أن يهاجر، فإن أقام كان عاصيًا بالإجماع، أما المستضعف من الرجال والنساء والولدان فقد عذرهم الله. وهم الذين لا يستطيعون حيلة لعدم النفقة، أو لأنهم مقيدون، مسجونون، أو لا يهتدون سبيلًا، لأنهم جهال بالطريق، لا يعرفون الطريق، لو خرجوا هلكوا، لا يعرفون السبيل فهم معذورون، حتى يسهل الله لهم فرجًا ومخرجًا من بين أظهر المشركين، والله المستعان.

لكن السفر والترحال بذاته له فوائد جمّة، لخصها الإمام الشافعي في خمسة، (بل هي أكثر):
تغرّب عن الأوطان في طلب العُلا وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد تفرّج همّ، واكتسابُ معيشة، وعلّم، وأدب، وصحبةُ ماجد وإن قيل في الأسفار ذلٌ ومحنة وقطعُ النياح في اكتساب الشدائد فموت الفتى خيرٌ له من حياته
بدرِ هوانِ بينِ واهٍ وحاسد
1. انفراج الهم والنغم: فمما عرف واشتهر بين الناس أن الملازم للمكان الواحد، أو الطعام الواحد قد يصاب بالسأم والملل منه، فتتأبه الرغبة في التجديد، وهذا حال بعض المقيمين، إذ قد يعثرهم ما يُضيق صدورهم، ويغتمون به، فيصابون بالملل والسامة، ويحسون بالرتابة في حياتهم، فإذا سافر الواحد منهم تغيرت الوجوه من حوله، واختلفت المشاهد والأجواء عليه، فحينئذ يذهب همه وينشرح صدره.

وهذا ما ينصح به الأطباء النفسيون من أصابه هم أو غم أن يسافر، وقد قيل: لا يصلح النفوس إذا كانت مدبرة، إلا انتقل من حال إلى حال.
2. اكتساب المعيشة: فإن من ضاق عليه رزقه في بلد نُصح بالسفر إلى بلاد أخرى، طلبًا للرزق، فإله سبحانه

وتعالى يقول:
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ الملك 15

فكم من رجل سافر لاكتساب الرزق ففتح الله عليه، ومن نوابغ الكلم: (صعود الأكام وهبوط الغيطان خير من القعود بين الحيطان).

3. تحصيل العلم: فقد كان الأنبياء والصالحون، يرتحلون في طلب العلم، ويقطعون المسافات الطويلة أحيانًا لأجل سماع حديث واحد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، يقول الإمام البخاري (رحمه الله تعالى - (رحل جابر بن عبد الله (رضي الله عنه)، مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس (رضي الله عنه)، في حديث واحد. وفي كتاب الله العزيز، ذكر الله سبحانه وتعالى لنا قصة سفر موسى (صلى الله عليه وسلم) للخضر (عليه السلام) في آيات من سورة الكهف.

ويقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ).

وقيل: لولا التغرب ما ارتقى درُ البحور إلى النحور
4. تحصيل الآداب: وذلك لما يُرى من الأدباء ولقاء العلماء والعقلاء، الذين لا يردون بلده، فيكتسب من أخلاقهم، ويقتدي بهم، فيحصل له من الأدب الشيء الكثير، وتسمو طباعه. ومن العلوم والآداب معرفة طبائع الشعوب ومنتوجاتهم الزراعية والصناعية، بل وتدقيق أطباق مطبخهم ونقلها لوطن المسافر.

5. صحبة الأماجد: ويشهد لها الحس والواقع، فكم سافر إنسان فلاقى كرام الرجال وأطاليهم، فخالطهم وعاش معهم، لأنهم أهل الضيافة والكرم، ومساعدة المحتاج والعناية بالغير، ولله درُ القائل:

نزلت على آل المهلب شاتياً
غريباً عن الأوطان في زمن المجد

فما زال بي إحسانهم وجميلهم
وبرهم حتى حسبتهم أهلي
ويقول الإمام الشافعي (رحمه الله تعالى):
سافر تجد عوضاً عن تقارقه

وانصب فإن لذيد العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده

إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
6. استجابة الدعاء، كما ثبت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:

" ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة الوالد لولده، ودعوة المسافر " رواه الترمذي.

فلذا ينبغي للمسافر الحرص على الإكثار من الدعاء بالمغفرة والرحمة له ولوالديه ولجميع المسلمين، وأن يسأل الله عز وجل التسهيل والتوفيق لما فيه خير الدنيا والآخرة.
7. زيارة الأحباب من أقارب وأرحام وأصحاب: وهذا

من أفضل القربات إلى الله سبحانه وتعالى، ويشهد لذلك حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " أَنْ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيَّنَ تَرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُدُّهَا؟ قَالَ: لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْبَبَكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ ".

8. صيانة النفس من الذل، فإن الإنسان قد يقيم بأرض يذل فيها، فيسافر طلباً لعمرة نفسه، بل وأعظم من ذلك الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، كما كان ذلك أيام النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان المسلمون يهاجرون من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه أبو داود في السنن.

ويشهد لهذا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من مكة، وهي أحب البقاع إليه، وهاجر إلى يثرب الطبية، فكان من أمره ما كان، ثم عاد إليها عزيزاً فاتحاً. يقول عن هذا العلامة بدر الدين الزركشي (رحمه الله):

(يستنبط منه مشروعية الانتقال من مكان الضرر).

يقول الإمام الشافعي (رحمه الله تعالى):

إرحل بنفسك من أرض تَصْنُمُ بها
ولا تكن من فراق الأهل في حُرْقٍ
مَنْ ذَلْ بَيْنَ أَهْلِيهِ بِلَدْتِهِ

فالاغترابُ له من أحسن الخُلُقِ
فالعنبرُ الخام رَوْتُ في مواطنه
وفي التغرّب محمولٌ على العُنُقِ
والكحلُ نوعٌ من الأحجار تنظره

في أرضه وهو مرميٌّ على الطرُقِ
لما تغرّب حاز الفضلُ أجمعه
فصار يُحْمَلُ بين الجفن والحدقِ

9. ومن فوائد السفر النسيك والعبادة: كالسفر إلى حج بيت الله الحرام.

10. ومن فوائد السفر المهمة: الخبرة في الناس ومعرفة أخلاقهم، وهذا يُعبر عنه بتجربة الناس.

قال العجلوني: (السفر يسفر عن أخلاق الرجال) وقال النجم: هو من كلام الغزالي في الاحياء بلفظ: (وانما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق).

ولذلك قال النجم: عند أبي القاسم البغوي بإسناد حسن، والخطيب في الكفاية، وغيرهم عن خرشة بن بحر قال شهد عند عمر بن الخطاب رجل شهادة: فقال له: لست أعرفك، ولا يضرُّك أن لا أعرفك، فأث بمن يعرفك. فقال رجلٌ من القوم: أنا أعرفه.

فقال: بأي شيء تعرفه؟
قال: بالعدالة والفضل.

قال: فهو جارك الأذنى الذي تعرف ليله ونهاره ومدخله

بلغ عدد المهاجرين العرب في الخارج أكثر من 35 مليون يمثلون أكثر من 12% من سكان الوطن العربي، والمهم في ذلك هو نوعية العقول المهاجرة من مختلف التخصصات، والتي من مختلف التخصصات، والتي من بينها تخصصات إستراتيجية

ومخرجه؟
قال: لا .
قال: فمعاملكم في الدينار والدرهم اللذين يستدل بهما على الورع؟
قال: لا .

قال: فرفيقتك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟
قال: لا .

قال: لست تعرفه . ثم قال للرجل: أثت بمن يعرفك. ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ: أن عمر رأى رجلاً يشي على رجل، فقال: أسأفرت معه؟ قال: لا . قال أخالطته؟ قال: لا . قال: والله الذي لا إله إلا هو ما تعرفه .

وروى الدينوري في المجالسة عن عبد الله العمري قال: قال رجل لعمر: إن فلانا رجل صدق. فقال له: هل سافرت معه؟ قال: لا . قال: فهل كانت بينك وبينه معاملة؟ قال: لا . قال فهل اتَّمتنته على شيء؟

قال: لا . قال: فأنت الذي لا علم لك به أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد. انتهى.

ولعل في قول (فوجريه دو مونبرون) ما يؤكد ذلك: " من لم ير إلا بلده يكن قد قرأ الصفحة الأولى فقط من كتاب الكون ".

الحقيقة أن السفر والهجرة يعني التعلم، يعني أن يرى الإنسان ذاته كما هي بموضوعية وكم هو حجمه أمام العالم الواسع... ولكنه عندما يصطدم بالعالم الخارجي يعرف ما هي حقيقته وما هي مكانته الحقيقية في عالم لا حدود له، مما تدفعه الرغبة إلى المزيد من المعارف والعلوم في عالم متغير بدون انقطاع!!!!

وإذا كانت الغربة أو السفر والهجرة على المستوى الفردي تفتح منافذ الرحمة أمام الفرد للخلاص من الضغوطات والصراعات السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية، والخلاص من الاضطهاد بمختلف مظاهره، أو الرغبة في تحصيل العلم، فإن عدم عودة قوافل المهاجرين وإبائتهم بعيداً عن موطنهم الأم يشكل نزيهاً مستمراً وتهديداً لأي عمليات إعادة بناء للبنية السياسية والاقتصادية والثقافية للبلدان المصدرة للهجرة. ولعل الإحصائيات على صعيد البلاد العربية ترينا حجم الكارثة المحدقة في الحرمان من القوى المهاجرة، فقد بلغ عدد المهاجرين العرب في الخارج أكثر من 35 مليون، يمثلون أكثر من

12% من سكان الوطن العربي، والمهم في ذلك هو نوعية العقول المهاجرة من مختلف التخصصات، والتي من بينها تخصصات إستراتيجية